

موت المؤلف وميلاد القارئ

د. عيسى طهال

كلية الآداب واللغات والفنون - جامعة الجلفة

الفئة المستهدفة: السنة الثالثة ليسانس

السداسي السادس

للاتصال: a.tahlal@univ-djelfa.dz

لم تكن التفكيكية بعيدة عن فضاء البنيوية حين تأسست على توسيع هذا الفضاء، فهي " نشاط فكري، ونوع من التفكير في الأدب يرى أن التمييز بين النقد والأدب ليس سوى وهم لا أكثر، تحاول التفكيكية توضيح الحقيقة التي مفادها أن أي تغيير جذري في الفكر التفسيري لا بد وأن يلقى مصاعب سخافته ومنافاته للعقل، وتعمل التفكيكية بطريقة طائشة مستهترّة، إذ أنها تعطل وتعلق كل ما نأخذه قضية مسلمة بها" (1)، ومن هنا فقد بدأت بواكير المشروع التفكيكي في منتصف السيتينيات من القرن العشرين، حين كثر انتقاد البنيوية وعدت التفكيكية كمرحلة يمكن تسميتها ما بعد البنيوية، "وقد مثلت فرنسا المهد الأول للتفكيك قبل أن ينتقل إلى أمريكا، فالمزاج الثقافي الفرنسي متشكك حينذاك من قوة تجانس التوحد والمحافظة، وتلك القوى التي رفضها التفكيك هي التي هيأت الظروف الملائمة لظهور التفكيك في فرنسا" (2).

وقد اختلف في ترجمة مصطلح "ديكونستركشن" (déconstruction) إلى العربية، فترجم بالتفكيكية، والتقويض. وترجمه بعضهم بالتشريحية. ولكن الأول أكثرها تداولاً، والأخير أبعداً عن الدقة. المصطلح مضلل في دلالاته المباشرة، لكنه ثري في دلالاته الفكرية، فهو في المستوى الأول يدل على التهديم والتخريب والتشريح، وهي عادة تقترن بالأشياء المادية المرئية" (3).

ويعد جاك دريدا مؤسس هذا الاتجاه، دون أن نعدم جهود بعض الفلاسفة، وإلى ذلك يذهب يوسف وغليسي حين يقول: "وإذا كانت الأصول الأولى للتفكيكية تعود إلى بعض

الفلاسفة الألمان (هيدجر، هوسرل...) فإن المنظر الأول لها هو الفرنسي (المولود بالجزائر) جاك دريدا الذي أرسى معالمها في أواخر الستينات عبر ثلاثة من كتبه، صدرت سنة واحدة (1967) وهي : الكتابة والاختلاف، الصوت والظاهرة، في علم الكتابة، متخذاً منها سلاحاً لمهاجمة الفكر الميتافيزيقي الغربي، و"التفكيكية" هي المقابل الشائع لمصطلح "Deconstruction" الذي اكتفى بعض العرب المعاصرين بنقله إلى "التفكيك" فيما ترجمه الدكتور عبد الله الغدامي بـ "التشريحية" واقترح آخرون (عبد المالك مرتاض وبعض النقاد السعوديين) ترجمته بـ "التقويضية" (4).

ولأن هذا المصطلح (التفكيكية) بقي كسائر المصطلحات التي يكثر فيها الجدل، فإنه "يمكن الوصول إلى مفهوم مفاده أو مؤداه أن ماهية التفكيكية تقوم على إقصاء كل قراءة أحادية المرجعية والتأويل تسعى إلى وإحداية الدلالية للنص، بل تسعى التفكيكية إلى جعل مدلولية النص بين يدي المتلقين يفككونه إلى المرجعيات التي بني عليها، فيقفون على هذه المرجعيات، ويقرؤون النص وفقاً لها، مهملات ومهدمة للنسق الذي يقوم عليه النص، في اعتقادها أن النص تركيب لغوي غير متجانس" (5)

وإذا بحثنا في استراتيجية التفكيك، فإنها تتأسس بوصفها طريقة للنظر والمعاناة إلى الخطاب، وهو يقف إلى الجانب الآخر من الأطروحات التاريخية والسوسيولوجية والسيكولوجية والبنوية الوصفية هدفه تحرير شغل المخيلة وافتضاض آفاق بكر أمام العملية الإبداعية، إنها محاولة لإنشاء استراتيجية عامة تتقادم المقابلات التي ميزت الفكر الغربي بدأ من أفلاطون ووصولاً إلى دوسوسير لتقييم في الأفق المغلق لهذه المقابلات استراتيجية بديلة للقراءة والكتابة، أو في مقارنة النصوص، وهي من هذه الناحية ليست حيادية وإنما تثويرية تحاول قلب الثنائيات الكلاسيكية وإزاحة النظام" (6).

وتقوم التفكيكية على جملة من الأسس النظرية حيث يمكن إجمالها عبر العناصر

التالية:

- موت المؤلف:

يعود مفهوم الأساس النظري لنظرية موت المؤلف إلى رولان بارت -حسبما ذكر الناقد يوسف وغليسي-، حيث "نشر رولان بارت مقالة بهذا العنوان "La mort de l'auteur" سنة 1968، أسقط عن المؤلف -فيها- تلك السلطة المطلقة التي كان يتمتع بها في الفكر

النقدي التقليدي، حيث قلص من صلاحياته الواسعة، وأعادته إلى مجرد ضيف على النص الذي كتبه بمجرد فراغه من عملية الكتابة، لأنه ليس أكثر من ناسخ ينهل من مخزون معجمي موروث ويتحرك ضمن فضاء ثقافي مشاع، خاصة أن اللغة هي التي تتكلم داخل النص وليس المؤلف (...). إن أساس الكتابة -من هذا المنظور "البارتي- هو القضاء على كل صوت وعلى كل أصل، لتغدو الكتابة ذلك الكون الحيادي الذي تضيع كل هوية بين سواده وبياضه، بداية من هوية الجسد الذي يمارس العملية الكتابة (...). وبتفنيد أسطورة المؤلف وإعلان موته، يكون بارت قد بشر بميلاد القارئ (الذي هو مرهون بموت المؤلف وقائم على أنقاضه) وعصر القراءة، حيث يصبح القارئ منتجا للنص، بعدما كان مجرد متفرج عليه أو مستهلكا له في أحسن الأحوال" (7).

على أن هذا المفهوم يعود إلى أبعد من ذلك (8) حيث نجد أن "قراءة لمراحل تطور الفكر الغربي الحديث، تكشف لنا عن أن التغير الذي حدث في النظر إلى (المؤلف) لم يكن وليد المناهج النصية فقط، بل إن التملل من تقاليد الكتابة أو القراءة التي لا تستطيع ولوج النص إلا من خلال (المؤلف)، ظهرت قبل ذلك، الأمر الذي جعل "ملارميه" يعمل على إزاحة سلطة المؤلف لفائدة الكتابة، وجعل اللغة هي التي تتكلم وليس المؤلف، وتبعه بول فاليري مشككا بمفهوم (المؤلف)، وسخر منه، وشدد على الطبيعة اللسانية (اللغوية) لعمل المؤلف (..). وأزال بروسست عن المؤلف سلطته العظيمة على الرغم من الطابع النفسي الظاهر في تحليلاته" (9).

- ميلاد القارئ:

يتيح لنا مفهوم موت المؤلف الانتقال مباشرة إلى استنتاج ما يعرف بميلاد القارئ، أي الاشتغال على الحضور الفعلي لسلطة القارئ، فقد "أعلنت التفكيكية كثيرا من شأن القراءة بتحويل القيادة من سلطة المؤلف (في العهد النفساني والسياقي عموما) وسلطة المؤلف (في العهد البنيوي والسيميائي) إلى سلطة القارئ، ذلك بأن النص يتألف من كتابات متعددة، تنحدر من ثقافات عديدة، تدخل في حوار مع بعضها البعض، وتتحاكى وتتعارض، بيد أن هناك نقطة يجتمع عندها هذا التعدد، وليست هذه النقطة هي المؤلف (...). وإنما هي القارئ: القارئ هو الفضاء الذي ترتسم فيه كل الاقتباسات التي تتألف منها الكتابة دون أن يضيع أي منها ويلحقه التلف" (10).

وعليه تكون القراءة هي "إعادة فهم النص في سياقات غير معلنة، ناتجها اكتشاف لمدلولات ومواقف إضافية أو أصيلة مسكوت عنها" (11).

لذا فإن مفهوم القراءة يعيدنا إلى النظر من جديد إلى عملية الكتابة، فقد "أصبحنا نعلم أن الكتابة لا يمكن أن تنفتح على المستقبل إلا بقلب الأسطورة التي تدعمها: فميلاد القارئ رهين بموت المؤلف.. وإضافة إلى القراءة (12)، فإن التفكيكية تعنى عناية قصوى بالكتابة، فقد وقف دريدا كتابه "De la grammatologie" على ترسيخ هذا المفهوم واجتثاث مفاهيم الكلام والصوت...، حيث دعا إلى كتابة خالصة تقتل "الكلام" وتقوم على أنقاضه، من حيث إن (موت الكلام هو أفق اللغة وأصلها) على حد تعبيره، إلا أن مفهوم الكتابة - في ضوء التصور التفكيكي - يتجاوز الدلالة التدوينية المبسطة إلى مفهوم أوسع، يقوم على أن النص المكتوب نص مفتوح متغير ومتجدد باستمرار، وفي وسع القارئ أن يعيد كتابته بصورة تأويلية متغيرة مع كل قراءة" (13).

- اغتيال الدلالة الواحدة وتشتيت المعنى (14):

إن هذا الفكر التفكيكي (اللامركزي) الجديد الذي تبناه دريدا، "تحرر النص الأدبي من إيسار القراءة الأحادية (التي تبرز خصوصا في النقد الماركسي) الداعية إلى القول بالمعنى الواحد "Monosemie" منتقلا إلى عهد التعددية المعنوية "Polysemie" حيث ساد الاعتقاد "بأن المعنى الثابت أمر مستحيل" وعليه فإن التأثير الرئيسي لتعليم جاك دريدا التفكيكي، كان وما زال هو تحطيم الافتراض الساذج بأن النص يمتلك معنى (...). فالمعنى غير موجود، أو متضمن في اللغة، إنما هو متماد مع حركة اللغة ذاتها، لا أحد يضمن المعنى والنص مقطوعة، على حد تعبير كريستوفر نوريس في (قاموس فونتانا للفكر المعاصر)، (...). إذن فلا مجال للبحث عن الدلالة الواحدة لنص ما في ضوء التفكيكية فالنص مفتوح على المعاني المتجددة - بتجدد القراءة إلى ما لا نهاية.

- الحركية الدائمة للغة (15):

يشيع في الفكر التفكيكي مصطلح "تحت المحو" Sousrature بمعنى أننا نكتب ثم نمحو، وهكذا، ولكل من الكتابة والمحو دلالة، وعليه فإن العملية ليست فقط لا نهائية - وبطريقة ما - دائرية: فالدوال تبقى متحولة إلى مدلولات، والعكس بالعكس، ولا تصل أبدا إلى مدلول أخير ليس دالا في حد ذاته، لتظل اللغة في حركية دائمة لا قرار لها.

- التناسخ والتناسخ:

يتجه هذا المفهوم إلى إعطاء أهمية لما يحيط بالنص، المعرفة الحافة، دلالات ما يتمركز داخل النص، وكل المضامين التي ترجع بالنص إلى ما يعتمل داخله من موروث محمل بمنتجه الفكري واللغوي والمعرفي، لذلك فإن التفكيكيون يقررون "ومعهم السيميائيون) أن لا وجود لنص مستقل استقلالا كاملا، وكل نص هو -في حقيقته- محتل احتلالا دائما لا مفر منه، ما دام يتحرك ضمن معطى لغوي موروث وسابق لوجوده أصلا، ويشغل في مناخ ثقافي ومعرفي مهيمن، فكل كتابة -إن- هي تأسيس على أنقاض كتابة أخرى بشكل أو بآخر، أو قل إنها خلاصة لكتابات أخرى سابقة لها (...). وبفعل هذا التداخل، ينتج ما تسميه جوليا كريستيفا بـ "الفضاء النصي المتعدد" وكل نص داخل هذا التداخل النصي يكون مجموعة فرعية من مجموعة أكبر هي فضاء النصوص المطبقة في محيطنا الثقافي (...). إنه مجال لتقاطع عدة شفرات (على الأقل اثنتين) تجد نفسها في علاقة متبادلة" (16).

كما نجد أن مفهوم التناسخ يمنحنا "إحلال فكرة الناسخ محل المؤلف، لأن القول بموت المؤلف لا ينفصل عن القول بالتناسخ، الذي يراهن على أن النص مجرد تعالق نصوص سابقة عنه" (17).

ومن خلال ذلك، وتعدد المصطلحات التفكيكية، تظهر لنا مصطلحات أخرى مثل "التكرارية التي تلغي الأسوار الحدودية بين النصوص، وتجعل كل نص قابلا لاسترجاع نص آخر وتكراره، والأثر La trace الذي يعني المرجعية النصية للنص الجديد، حيث إذا كانت الكتابة تنويعا على رجح صدى منبعث من مصادر صوتية متداخلة فإن الأثر هو عين هذه الأصوات، وإذا كانت كل كتابة تتكئ على (أثر) قرائي سابق، فإن التفكيكية تنفي وجود "أثر أصل" فالأثر -عند جاك دريدا- هو بمثابة أصل الأصل (..) ومعنى ذلك أن اقتفاء الكتابة لأثر سابقاتها ينبغي أن يكون اقتفاء أصيلا يهب الذات الكاتبة كينونتها، ويحقق لها تميزها واختلافها، ولكن عنصر "المضاف" Supplement هو الذي يؤمن عملية الاختلاف، بما يحققه من إضافة إلى الأصل (..) إنه إضافات إلى الطبيعة وإغناء لها بما تكتنزه من وظيفة تجميعية" (18).

وعليه فلكي "لا يتحول (المضاف) إلى مجرد فضلة زائدة، يسعى جاك دريدا إلى البحث عن عنصر آخر أكبر من ذلك وأهم منه، إنه Le supplement الذي اقترح

ترجمته بـ "البديل" لأنه يستجيب تماما لمفهوم هذا العنصر -كما يقدمه دريدا- من حيث إنه لا يضاف إلا للتعويض إنه يتدخل أو يتسرب ويتسلل ليحل محل كذا، ويسد مسده، تماما كما نسد فراغا ما"(19).

هوامش:

- (1) العرابي لخضر: المدارس النقدية المعاصرة، ص 186
- (2) سامر فاضل الأسدي: البنيوية وما بعدها النشأة والتقبل، ص 247.
- (3) فاطيمة زهرة إسماعيل: القراءة التفكيكية، مجلة عود الند، ع79،
<https://www.oudnad.net/spip.php?article644&lang=ar>
- (4) يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، ص 153.
- (5) العرابي لخضر: المدارس النقدية المعاصرة، المرجع السابق، ص 191.
- (6) سامر فاضل الأسدي: البنيوية وما بعدها النشأة والتقبل، المرجع السابق، ص 261.
- (7) ينظر: يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، المرجع السابق، ص 153.
- (8) لقد تبلور هذا المفهوم إنطلاقا من عدة مرجعيات، فالشكلايون الروس عملوا "على إقصاء المؤلف وعزله، والبحث عن النظام والبنيات الثاوية وراء الاختلاف فوق السطح النصي"، وأيضا "مدرسة النقد الجديد التي شاركت في النقاش حول هذا المفهوم.. فأليوت الذي آمن بأن العمل الأدبي قائم بذاته ومنفضل عن المؤلف، ويعيش في عالمه الخاص، ويعتقد (مارتن دودزورث) أن أليوت سبق بارت بإعلانه عن موت المؤلف بابتكاره (الصوت=الداخلي)، وفي هذا إثبات قواسم مشتركة بين البنيوية والنقد الجديد، في مسألة التقليل من سلطة المؤلف ومكانته في الممارسة النقدية"، كما نجد أيضا "الحقل الفلسفي السابق لظهور البنيوية، الذي لم يعد وفقا على مقولة الإنسان، كما كان يعتقد سارتر في ذلك"، بالإضافة إلى ذلك فإن تعبير (نتشه) "من خلال دعوته إلى موت الإله عن بداية النهاية للميتافيزيقا الغربية، وإعلانه هذا كان تمهيدا لإعلان موت المؤلف"، ينظر: سامر فاضل الأسدي، البنيوية وما بعدها النشأة والتقبل، المرجع السابق، ص 114، 115.
- (9) نفسه، ص 113.
- (10) يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، المرجع السابق، ص 154.
- (11) محمد الدغمومي: نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، ص 269.
- (12) إن القراءة هنا هي منهج يستقرئ النص ويعيد شرح عناصره في ضوء افتراضات ليست سوى فهم لسياقات النص الأصلية: صورة لنص أصلي - منطلق، أو نص غائب. وباختصار، إنها تأويل. ينظر: نفسه، ص 269.
- (13) ينظر: يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر من الألسنية إلى اللانسونية، المرجع السابق، ص 155.
- (14) نفسه، ص 156.
- (15) ينظر: نفسه، ص 156.

- (16) ينظر: نفسه، ص 158.
- (17) سامر فاضل الأسدي: النبوية وما بعدها النشأة والتقبل، المرجع السابق، ص 121.
- (18) ينظر: يوسف وغليسي، المرجع السابق، ص 159.
- (19) نفسه، ص 159.